

الفصل التاسع

علاقة ربيعة بالدولة الفاطمية ومملكة البجة وصعيد مصر

٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ٩٦٩ - ١١٧١ م

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ . وكان قد غزاها القائد جوهر مجنوده ، واحتل القسطنطين وأنشأ مدينة القاهرة ، ومهد الطريق للخليفة الفاطمي المعز لدين الله لدخول مصر وتثبيت دعائم الخلافة بها ، واستتب الأمر للفاطمين ، ووصل سلطانهم إلى صعيد مصر .

بيد أنه ظهر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١٢ هـ ٩٦٦ - ١٠٢١ م) زعيم أموي يدعى الوليد بن هشام بن عبد المملك بن عبد الرحمن الأموي الذي ولد بالأندلس ، وقدم القيروان واتجه نحو مصر ومعه جموع من المناصرين له ، وهو يزعم إقامة دولة له فيها بعد أخذها من الفاطميين . وعرف هذا الزعيم بأبي ركوة لأنه كان يحمل إبريق ماء للتوضؤ كما يفعل بعض رجال الصوفية أثناء سفرهم من مكان إلى آخر كدالة لهم على تصوفهم وتقواهم . فلما وصل إلى مصر أخذ أبو ركوة يدعو القبائل العربية لنصرته والخروج معه على الفاطميين . وقد وجد أنصارا له من بنى قرة وغيرهم من العرب الذين انضموا إليه . فخرج بهم لملاقاة جيوش الحاكم يأمر اله الفاطمي . وقد استطاع أبو ركوة أن يهزم الحاكم ويضيق

عليه الخناق وأبلى رجاله بلاء حسنا حتى قرر الحاكم بأمره الخروج من مصر إلى الشام بسبب الهزائم المتتالية التي لحقت به . ولكن بعض مستشاريه أشاروا عليه بالصمود في وجه أبي ركة ، وبعد معارك عدة استطاع الحاكم أن ينتصر على أبي ركة وأخذ يلاحق فلوله حتى انهكت الحرب أنصاره من بني قرة ، فأشاروا على زعيمهم الأموي باللجوء إلى ديار أخرى بعيدة عن مصر ، أخذوه عبر البرية يقوده رجلان بدويان (ربما من البجة) على جهامهم بعيدا عن الضفة الشرقية للنيل حتى أوصلوه إلى ملك النوبة . وهناك لجأ الثائر الأموي إلى دير أبي شنودة في النوبة في ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ ، غير أن الحاكم كان مجدا في طلبه ، فأرسل أحد كبار قواده وهو الفضل بن عبد الله بن صالح لمطاردته والقبض عليه . ويبدو أن الفضل حين وصل إلى صعيد مصر عرف أن زعيم ربيعة آنذاك والذي كان زعيما على البجة وهو أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بالأهوج المطاع هو الذي يستطيع أن يدل على مكان أبي ركة . وكما هو معروف عن البجة فإنه ما من أجنبي يدخل بلادهم سرا أو علنا إلا كانوا به عارفين . كما أنهم يحصون غدواته وروحاته ، وينتشر الخبر بينهم ، ولا يتسرب لغيرهم من الناس . وقد أفاد أبو المكارم من القرابة التي بينه وبين البجة التي توطدت عندما كان بشر زعيما على البجة وربيعة في ارض المعدن في سنة ٣٣٢ هـ فاعلم بخبر لجوء أبي ركة بمساعدة دليلين ربما بجاويين إلى دير أبي شنودة في النوبة . فما كان منه إلا أن دل القائد الفضل ومن معه من أبنائه وغيرهم إلى مكان أبي ركة حيث ألقى القبض عليه ، وحمل إلى القاهرة ، وطيف به في شوارعها ثم قتل .

ويبدو من هذا الحديث أن لربيعه وزعمائها مكانة سياسية وأمنية كبيرة في صعيد مصر وصحراء البجة . وقد أكسبها هذا التعاون مع دولة الفاطميين في اللحظات الحرجة اعترافا من الخلافة . الفاطمية بمكانتها وباعتبار زعيمها احد بناء هذه الخلافة . ويلاحظ ان الخلفاء الفاطميين كانوا في موضع سياسى لا يخلو من الحرج لأنهم كانوا يواجهون العباسيين من الشرق ، والأمويين من الغرب ، والسنيين من الداخل . فكان لا بد لهم من أن يؤمنوا حدودهم الجنوبية نحو بلاد النوبة . كما كان المسلمون يفعلون منذ أن فتح عمرو بن العاص مصر وطيلة القرون التي تلت ذلك الفتح .

وقد كان لهذا التعاون بين إمارة ربيعة والحاكم بأمر الله الفاطمي اثر عميق في إنشاء صلات قوية بريعه ، واعترافا بمكانة زعيمها هبة الله الذى منحه الخليفة الفاطمي لقب " كنز الدولة " بهذه المناسبة . وقد أطلق هذا اللقب بعد ذلك على كل أبنائه من زعماء ربيعه . ويضيف المقرئى بأن الحاكم يأمره " أكرم كنز الدولة إكراما عظيما " . ومما يدل على أهمية هذا الحديث بالنسبة للخليفة الفاطمي ما ذكره المقرئى فى اتعاظ الخلفاء إذ يقول فيه :

" إنه حين وقع أبو ركوة فى يد الفضل ابتهج الناس لذلك ، وخلع على قائد القواد وعلى أولاده وعلى البدوي^٢ الذى خرج فى طلب أبى ركوة حتى أدركه ببلد النوبة . وقد أرسل الفضل عسكريا مع الكتاب ، فلما بلغوا أطراف النوبة وجدوا أباركوة قد اختفى بدير هناك ، وله فيه أربعة عشر

^٢ ربما قصد بهذا البدوي احد رسل كنز الدولة وربما كان من احد ابناء البجة العارفين بالطرق

يوما. فدلهم عليه رجل من العرب ، فقبضوا عليه فى ربيع الأول منها ، وأتوا به إلى القائد فضل ، فسار به إلى مصر، ونزل بركة الجيش ."

ويبدو أن الابتهاج بهذا الحدث قد كان عظيما من قبل الخليفة الفاطمى حتى ذكر المقرئى أيضا بأن الخليفة لم يكرم قائده الفضل فقط ، بل إنه أفاض فى خلعه على أبناء الفضل ، فجوزى ابن الفضل أبو القاسم على خير الجزاء ، وكذلك آخرون ، وحتى البدوي الذى دل على أبى ركة لم يحرم من التكريم العظيم مما يدل على أن الحاكم يأمره قد تنفس الصعداء حين ساعده كنز الدولة الأول بالقبض على أبى ركة. وقد اعتبره أميرا حليفا له ومن عماله الذين يحب الاهتمام بهم .

ومنذ هذا التاريخ أصبح لزعماء ربيعة بالإضافة إلى لقبهم الذى خلع عليهم ، مكانة رسمية لدى الخلافة الفاطمية وبين القبائل العربية فى صعيد مصر ولدى أصهارهم البجة وجيرانهم ملوك النوبة . وأصبح هؤلاء الأمراء يتطلعون إلى اليوم الذى تزداد فيه إمارتهم حجما وقوة .

بعد هذا التفاهم الوثيق بين الدولة الفاطمية والإمارة الربعية فى صعيد مصر ومملكة البجة شعر زعماء ربيعة بكثير من الاطمئنان فى إمارتهم. وبسبب الاعتراف الرسمى بمكانتهم فى الدولة فقد اخذوا يسيطون نفوذهم على ما جاورهم من قبائل . وكان نفوذهم هذا أدبيا وسياسيا .

وقد أظهرت دولة كنز الدولة براعة فى إدارة البلاد الواقعة تحت نفوذها ، فقد كان الطريق بين أسوان إلى عيذاب فى أمن وسلام ، والقوافل بينهما تسير غادية رانحة على جمال البجة ، وتحت حراستهم . وكانت السلع تحمل إلى الجانيين. ومن بين الواردات والصادرات إلى جهات أسوان والنوبة (الخرز والأمشاط والمرجان والرقيق .والقمح والذرة والتبر

والعاج^٤ والجمال وخاصة الجمال التي تسمى نجبية . وكانت هناك علاقات تحويل مالية بين أهل أسوان وعيذاب وقد ذكر ناصر خسرو واقعة قام فيها أحد سكان أسوان وهو محمد بن فليح بالكتابة لوكيله في عيذاب أن " أعط ناصر كل ما يريد مهما تكن قيمته مما لي عندك ، وإذا أراد فأعطه من مالك وأنا أعطيك عوضا عنه . " وهذا يدل على ازدهار المعاملات التجارية في منطقة إمارة أبناء ربيعة تلك السنة وهي سنة ٤٤٢ هـ ؛ كما يدل على التطور في نظام معاملات الحوالات بين تجار المنطقة والثقة المتبادلة بين أبناء تلك الإمارة .

واستمرت الحال الأمنية كذلك مما عزز موقف أبناء كنز الدولة من أمراء ربيعة في تلك النواحي . ولا شك أنهم كانوا محل تقدير كافة الساكنين بتلك الجهات . وفي خلال الفترة التي تولى فيها المستنصر بالله الخلافة حدثت انشقاقات بين جنود الدولة عصفت بكثير من أمن البلاد وهيبة الخلافة . ففي سنة ٤٥٤ هـ بدأ النزاع بين جنود الخلافة من الأتراك وبين الجند السودان الذين كانت تستكثر منهم أم الخليفة المستنصر لعدم ثقته في طاعة الأتراك للخليفة ، ولما واثقهم وضبطهم بقوة سلاح الجنود السودانيين.^٥ وحدثت أول واقعة بين المعسكرين ، ولم يفز أحد منها بطائل وإن كان الأتراك قد كسبوا الجولة الأولى . ووقفت أثناء المعركة وما بعدها أم المستنصر بالله مع جند السودان . وكانت هي نفسها جارية سودانية وأما للخليفة .

^٤ ناصر خسرو . انظر مسعد : المكتبة السودانية العربية ص ١١٥ - ١٢٠

^٥ مسعد المكتبة السودانية العربية ص ١٨٦ - ١٨٧

ورضى الجانيان بالصلح وإن كانت الصدور مطوية على حزازات وعدم ثقة. وكان أن تأخر الخليفة في دفع رواتب الأتراك ، واتهموه بمآلاته للسودانيين ، ولذلك فقد ثاروا عليه. ودافع عنه السودانيون وهزموا الأتراك في بداية المعارك وكاد يقضى عليهم لو لا أن استمات زعيمهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان وشمر عن ساعده ، وأعلن عن استعدادده للموت وقائم سيفه بيده. ففقت عزيمة الأتراك ، وانضموا إليه، واستبسلا بعد انكسارهم، وكروا على السودان حتى هزموهم في آخر الأمر ، وذلك في سنة ٤٥٩ هـ ١٠٦٦ م. وبانكسار السودانيين زاد غرور الأتراك وأسرفوا في مطالبتهم بتأخرات رواتبهم. وعلم ناصر الدولة بوجود بعض العسكر السوداني في الإسكندرية ، فخشي من بأسهم ، ففقد جنوده الترك، وذهب بهم إلى هناك حيث فاجأ السودانيين ، ودخل معهم في معارك انتهت بالقضاء عليهم فلم تبق منهم قوة يعتد بها لا في القاهرة ولا في الإسكندرية. وازداد ضعف الخليفة وأمه بسبب هذه الهزائم ، وأدى ذلك إلى اشتداد شوكة الأتراك، وطمعوا في أموال المستنصر، وارتفعت رواتبهم من ثمانية وعشرين ألف دينار في الشهر إلى أربعمئة ألف دينار. ثم أجبروا الخليفة على بيع ما يملك لتسديد متأخرات رواتبهم ، واشتروا ما يملك في دوره بأثمان بخسة . وتجمع السودان في الصعيد بعد ما حاق بهم في القاهرة والإسكندرية من نكبات ، وخشي ناصر الدولة بن حمدان من تجمعهم ذاك ، وقرر اللحاق بهم قبل أن تكتمل استعداداتهم، أو ينضم إليهم آخرون. ووصل إلى هناك ، وواقعهم في الصعيد ، فانهزم الأتراك أولا، ثم ما لبثوا أن استجمعوا قواهم المعنوية ، واستماتوا في القتال حتى انتصروا في آخر الأمر ، وتم لهم ذلك في سنة ٤٦٠ هـ. وبسبب هذه الأحداث فقد اضطر

كثير من الجنود السودان المهزومين أن يلجأوا إلى كنز الدولة الذى كان ملجأ فى نفس الوقت للقبائل العربية الراغبة فى الانضواء تحت زعامته وحلفه . واجتمع كثير من الموتورين الذين أصابتهم سيوف الجنود الأتراك حول هذا الزعيم العربي لإقامة قوة تناهض الأتراك . فلما أضحى بدر الجمالي أمير الجيوش ووزيرا للخليفة الفاطمي سنة ٤٦٦ هـ شعر بأن الموقف في صعيد مصر يندر بالخطر إذ قويت شوكة كنز الدولة وأصبح زعيما يتزايد نفوذه ومؤيدوه . ولم يشأ بدر الجمالي أن تستبدل الخلافة الفاطمية شوكة أموية بشوكة ربيعة . وكان واضحا أنه مع مرور الزمن ستزداد قوة تلك الدولة الربيعة ، وتنقلب الى دولة ، ثم تثير المتاعب للفاطميين عندما يشتد ساعدها . وفي خلال فترة بدر الجمالي ازداد الشعور بالقلق من وجود دويلة أبناء الكنز في صعيد مصر وأراضي البجة ، فما كان من بدر الجمالي إلا أن قاد جيشا إلى كنز الدولة ، وحطم قوته ، وأضعف ربيعة وبعض القبائل العربية التي كانت تعيش في تلك الجهات مثل بلي وجهينة وغيرهما من القبائل العربية التي لم تكن على المذهب الشيعي . ولما رأى كنز الدولة محمد تغلب الفاطميين عليه لجأ إلى بلاد النوبة ، ولكن استطاع أعداؤه اللحاق به ، وقبضوا عليه هناك ، وساروا به إلى القاهرة حيث قتل وصلب في باب الحديد ليكون عبرة لغيره من الطامعين في الملك . وكان ذلك في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م .

وقد أضعف مقتل كنز الدولة محمد دويلة ربيعة إلا أنه لم يقض عليها تماما إذ استمرت هذه الإمارة في الوجود تتقاذفها الأنواء السياسية لعدة قرون أخرى .

كذلك فان العلاقة الطيبة التي كانت بين أبناء كنز الدولة والفاطميين تعرضت للاهتزاز الشديد . ويذكر ابن ميسر في تاريخه " أخبار مصر " أن كنز الدولة محمد قد ثار في أسوان سنة ٤٦٩ هـ ، وكان قد تغلب عليها وعلى نواحيها ، فعظم شأنه ، وكثرت أتباعه ، فسار إليهم أمير الجيوش (بدر الجمالي) وقتله وقتله . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع التي انصلح بها حال الديار المصرية بقتل المفسدين من غرماتها وعساكرها " .

من خلال هذه المعارك التي دارت بين الجنود السودان وبين الأتراك الذين كان يقودهم أمير الجيوش الفاطمي بدر الجمالي ، وغيرها من معارك في مصر ، يلاحظ أن هؤلاء الجنود السودان الذين كانوا يصلون إلى الديار المصرية عن طريق النوبة كانوا يمثلون قطاعا هاما من طبقة الجندية في مصر ، وكان كثيرا ما يقع على عاتقهم الدفاع عن الديار المصرية ضد المعتدين والغزاة ، وكانوا يدينون بالطاعة لولايتهم ، ولا يخونون الأمانة ، ولا يركنون إلى العدر . كذلك نجد أنهم ورجال القبائل العربية بل وغيرهم من الوطنيين يشكلون قوة موحدة مع زعماء البلاد للذود عن المسئولين من ولاة وخلفاء بعكس ما كان يصدر من الممالك الأتراك " ومن لف لفهم " .^(١)

وهذا ما حدا بمحمد علي باشا في القرن التاسع عشر إلى جلبهم من السودان وتجنيدهم لما عرفوا به من أمانة على العهد ، ووفاء بالقسم ، وعدم تمرد على السلطة العادلة ، والتزام بالضبط والربط مع توفر الشجاعة والحماس والإخلاص والاستماتة . وقد عرف فيهم هذه الشيم قدماء المصريين ، ثم كل من جاء بعدهم حتى عهد الإخشيديين ثم الفاطميين ،

(١) التعبير من عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب للمقريزي ص ١١٥

فكل هؤلاء الذين كانوا موالين للخلافات العربية الإسلامية كانوا يضعون فيهم ثقتهم . وحتى محمد علي باشا سار على منوال هذه الحكومات السابقة . ولكن عندما ظهر بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمي ومن معه من جند المماليك الأتراك ثم صلاح الدين الأيوبي ومن معه من أكراد وأتراك ، فإن هؤلاء الجنود السودان استغني عنهم كجنود واستبدلوا بمماليك الأتراك والأكراد الذين ورثوا فيما بعد ملك الأيوبيين .

ويجدر بنا أن نؤكد هنا على أن التمازج والتكافؤ بين سكان المنطقة من مصريين ونوبيين وأفارقة وعرب كان سهلا . كما أن وقوفهم صفا واحدا كان أمرا ميسورا كما حدث بين كنز الدولة والجنود السود الذين فروا من بدر الجمالي ثم من صلاح الدين بعد ذلك بقرن وهربوا من القاهرة ، وكما حدث من تعاضد بين المواطنين المصريين وجنود الخليفة العاضد بالله السودانيين ضد صلاح الدين وأخيه وجنودهما من أكراد وأتراك . وهذه حقيقة تاريخية تؤكد التلاحم الإفريقي العربي في وادي النيل منذ أقدم العصور رغم تباين الأعراق . كما تظهر هذه الأحداث واقعية التمازج والاختلاط الشيء الذي أخرج الشعب بكافة سماته ، ووحدة شيمه ، وعلو مثله ، وسماحة خلقه التي استمدتها من الإسلام والعروبة. من عبارة ابن ميسر^٧ يبدو أنه لم يكن راضيا عن وجود دولة أبناء كنز الدولة في تخوم مصر الجنوبية حيث تجمعت القبائل العربية وأبناء الممالك السودانية ، كما لم يكن راضيا عن التقارب بين هذه الممالك ودولة ربيعة في تلك النواحي ، وعد هذا التقارب مدعاة لفساد الأمور بمصر. كما أنه ذكر بأن كنز الدولة قد ثار على الخلافة الفاطمية في الصعيد واستولى على أسوان

^٧ ابن ميسر ((٦٧٧٥ هـ ١٢٧٨) مسعد ص ١٨٨

وما جاورها. وقد كانت الظروف كلها مهيأة في الصعيد لمواجهة بين الفئات المختلفة التي تعيش في صعيد مصر وبين السلطة المركزية في القاهرة ، فهناك بقية الجنود السود الذين فتك بهم ناصر بن حمدان ومن معه من أتراك ، وهناك النازحون من القبائل العربية مثل جهينة ويلي اللتين طردهما الفاطميون من أراضيهم التي منحت للقبائل القرشية حتى عرفت باسم بلاد قريش فيما بعد . ويضاف إلى هاتين القبيلتين الجعافرة وثعلبة ممن أخرجهم الفاطميون من بلادهم في مصر . وكان واضحا لهذه القبائل العربية أن الدولة الفاطمية لا تثق بموالاتهم لها لاختلاف مذهبهم السني مع مذهبها الشيعي الفاطمي . ثم كان هناك بنو كنز الدولة الذين أخذت أسهمهم السياسية ترتفع في تلك الجهات ، فقد كانوا يتمتعون باعتراف من الدولة الفاطمية بمكانتهم السياسية السامية ، كما كانوا قبلة للقصاد من العرب الذين كانوا يفدون إليهم لمكانتهم ولغناهم بالمقارنة بغيرهم ، إذ كانوا يحصلون على شيء من ريع معدن الذهب وعيذاب وغيرهما من وسائل الإيراد . ويشير ابن ميسر إلى كثرة أتباع كنز الدولة حتى بلغ به أن هاجم أسوان ونواحيها ، واستولى عليها . وهذا ما أيقظ بدر الجمالي إلى هذه المشكلة وجعلته يسرع السير إلى الصعيد ، ويقضى على كنز الدولة ومن معه . وقد كانت الخلافات المذهبية بين الحاكم والمحكوم ، والخوف من ثورات العرب ما جعل الفاطميين غير راضين عن أي تحالف بين ربيعة وبين غيرها من القبائل السنية الأخرى .^٨

^٨ يقول ابن خلدون أن كنز الدولة كان شيعيا . راجع الدكتور مصطفى مسعد : المكتبة السودانية

عن ابن خلدون .

وربما كان عدم الثقة في مناصرة القبائل العربية لها هو الأمر الذي جعلها تكثر من جنيد السودانيين وتسعى إلى شراء رقيقهم ليكونوا لها قوة على أعدائها . ولم يستطع خلفاء الفاطميين وضع ثقتهم في الأتراك المملوكين لهم ، والذين كانوا شوكة في حلق الخلافة الفاطمية بسبب كثرة ثوراتهم على الخليفة كما حدث في أيام المنتصر بالله . وهكذا نجد أن العلاقات بين أبناء كنز الدولة والخلافة الفاطمية تسوء بعد تلك السنوات نظرا لما يعترضها من شكوك حول نوايا أمراء ربيعة من أبناء كنز الدولة الذين كرمتهم بمنحهم هذا اللقب .

بعد هذه الأحداث الدامية التي حدثت في صعيد مصر بين الوزير بدر الجمالي أمير الجيوش وإمارة ربيعة ومن حالفها من القبائل العربية والفئات السودانية من بجة وغيرهم استقامت الأحوال مرة أخرى وعاشت المنطقة في هدوء وسكينة ، بل لقد رجعت الدولة الفاطمية إلى إعادة تجنيد الرجال من السودان مرة أخرى وأبقتهم في مصر جنبا إلى جنب مع الجنود الأتراك الذين كانت تجلبهم أيضا رغم ثوراتهم وتمردهم وعدم طاعتهم للخلفاء الفاطميين . وفي أيام العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين كانت هناك جماعة من الجند الأتراك ، والسودان وحدث بينهم نزاع كبير وذلك عندما استوزر العاضد صلاح الدين الأيوبي كما سيحيى .

وقد أدت هذه النزاعات بين الجند السودان والأتراك إلى حالة من عدم الاستقرار في البلاد وقد وصف ابن ميسر الحالة بأنه " كان هناك غلاء في البلاد ، لا بسبب قصور من النيل ، وإنما من اختلاف الكلمة ، ومحاربة الأجناد بعضهم لبعض ، فتغلبت لواتة والمغاربة على الوجه البحري ، وتغلب السودان على الصعيد والمليحية ، والأتراك بمصر والقاهرة " .

وكان ذلك في خلافة المنتصر بالله (سنة ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ - ١٠٣٥ م) أما الضربات التي كالأها بدر الجمالي ، أمير الجيوش للفئات المستضعفة من فئات الدولة الفاطمية فإنما كانت رغبة منه في ألا يتسع الخرق على الرافع ، فأراد أن يبدأ بالجنود السود ، ثم بإمارة كنز الدولة . ولكنه ترك الجنود الأتراك كأداة تأديب للآخرين كلما قويت شوكتهم ، وكان هذا أسوأ ما فعل ، إذ أنهم قاموا في نهاية الأمر بإضعاف الخليفة ، وزعزعة مكانة الحكم . وانتهت فترة وزارة بدر الجمالي ، ولم تقم قائمة لأبناء الكنز أو أي فئات أخرى لفترة تقارب القرن حتى بدأ الخطر الصليبي يطل برأسه مرة أخرى في الأراضي الشامية ومصر ، وعندها دخلت الدولة الفاطمية وجنودها من سودان وأتراك في صراعات حول السلطة ، ومناصرة الخليفة الفاطمي . ودخل صلاح الدين في هذا الصراع ولعب هو وأخوه وجنوده دورا هاما في تاريخ مصر للسيطرة عليها ، وفرض سلطانه عليها .